العلامة محمّد هادي معرفة قدس سره مفسّرًا اجتماعيًّا

د. آلاء الجواهري[1]

مقدّمة:

حدثت في العصر الحديث تطوّرات واسعة النطاق في المجالات السياسيّة والاجتماعيّة والإيديولوجيّة والعلميّة في المجتمعات الإسلاميّة في شرق العالم الإسلاميّ وغربه، لعبت دورا هامًّا في الفكر الإسلاميّ المعاصر وتفكير المسلمين، فظهرت مناهج وألوان تفسيريّة جديدة[2]؛ ومن بين هذه الألوان؛ التفسير الاجتماعيّ الذي تأثّرت به أهمّ تفاسير الشيعة وأهل السنّة في الواقع المعاصر؛ كـ "الميزان في تفسير القرآن"، و"من وحي القرآن"، و"الكاشف"، و"إشعاع من القرآن"[3]، و"التفسير الحديث"، و"التفسير الأثريّ الجامع"، و"المنار"، و"في ظلال القرآن"، و"التحرير والتنوير"، و"المراغي"، و"المنير"[4].

(1) باحثة في الفكر الإسلاميّ، من العراق.

(2) انظر: عنايت، حميد: لمحة عن الفكر السياسيّ للعرب من حملة نابليون على مصر إلى الحرب العالميّة الثانيّة، طهران، الشركة المساهمة للكتب الجيبيّة، ص1-26؛ نفيسي، شادي: العقلانيّة في تفاسير القرن الرابع عشر، ط2، قم، بوستان كتاب، 2006م، ص24-106؛ الجمّال، حمد بن صادق: اتّجاهات الفكر الإسلاميّ المعاصر في مصر في النصف الأوّل من القرن الرابع عشر الهجريّ، الرياض، دار عالم الكتب، 1414هـ.ق، ج1، ص27-56.

(3) باللغة الفارسية: "پرتويي از قرآن" للسيّد محمود الطالقاني.

(4) انظر: عبد الحميد، محسن: تطوّر تفسير القرآن: قراءة جديدة، بغداد: وزارة التعليم العالي والبحث العلميّ- جامعة بغداد، بيت الحكمة للنشر والترجمة والتوزيع، 1989م، ص223؛ أسعدي، محمد؛ وآخرون: معرفة آفّات التيّارات التفسيريّة، قم، معهد بحوث الحوزة والجامعة، 2013م، ج2، ص425-429؛ معرفة، محمد هادي: التفسير والمفسّرون، قم، مؤسّسة التمهيد الثقافيّة، 2001م، ج2، ص481-508؛ الأيازي، محمد علي: الاتّجاه الاجتماعيّ في التفاسير المعاصرة للقرآن المجيد: مجلة العرفان الاجتماعيّ، العام الثاني، العدد3، ربيع وصيف 2010م، 103-119.

ويرى كثير من الباحثين في علوم القرآن وتفسيره أنّ "العلامة محمد هادي معرفة" فتح بابًا جديدًا في العلوم القرآنيّة عند الشيعة في عصرنا الراهن؛ بكُتبه وأفكاره الفذّة، وقد كان له الفضل الكبير في إحياء الثقافة القرآنيّة ونشرها، ودحض الافتراءات ضدّ القرآن الكريم، وتتبّع مناهج المفسّرين في التفسير، والتحقيق في مسائل علوم القرآن بكلّ موضوعيّة وأمانة علميّة، كما أنّ له إبداعات وإسهامات واضحة تتعلّق بالتدريس الحوزويّ والأكاديميّ للقرآن الكريم. وبنظرة فاحصة إلى اهتماماته ومؤلّفاته القرآنيّة نجد له نصيبًا وافرًا في بلورة الاتّجاه الاجتماعيّ في التفسير وتطويره. وبهذا يمكن أن نعدّه في جملة المفسّرين الاجتماعيّين، بل هو فتح المجال عند مفسّري الشيعة لكي يكون التيّار الاجتماعيّ للتفسير ذا نطاق علميّ وعقليّ؛ كما كان اجتماعيًّا.

أولًا: نشأته وحياته العلميّة:

محمّد هادي بن علي بن الميرزا محمّد علي معرفة (1930 كربلاء المقدّسة - 2006م قم المقدّسة):

عالم ورجل دين من المسلمين الشيعة، وبحّاثة في العلوم والبحوث القرآنيّة. من أحفاد الشيخ عبد العالي الميسي، صاحب الرسالة الميسيّة (ومؤسّس معهد التمهيد الثقافيّة). تعلّم دروس السطوح قبل مرحلة دروس الخارج لدى والده، وبعد ذلك توجّه لدراسة دورة الاجتهاد ومرحلة الأصول، وأنهى دورة الأصول العالية وقسم من دورة الاجتهاد في الحوزة العلميّة. ومن أجل الاستفادة من دروس آية الله العظمى الخوئي قدس سره توجّه إلى الحوزة العلميّة في النجف الأشرف، وحينما كان في مدينة كربلاء، شارك مع مجموعة من أساتذة الحوزة الأفاضل؛ كالسيّد محمد الشيرازي، والسيّد عبد الرضا الشهرستاني، والسيّد محمد علي البحراني، والشيخ محمد باقر المحمودي، بإصدار مجلة حملت اسم "أجوبة المسائل الدينيّة". وخلال

سنوات الدراسة وبعدها كان المرحوم آية الله معرفة منهمكًا في تدريس العلوم الدينيّة في الحوزات العلميّة، في مدن كربلاء، والنجف، وقم، وبعد خروجه من العراق في زمن صدام حسين، وبعد فترة زمنيّة شارك في دروس المرحوم ميرزا هاشم الآملي، وبعدها بدأ تدريسه؛ بوصفه أستاذًا رسميًّا في الحوزة العلميّة في قم المقدّسة. وسبق أنْ كان من أعضاء جماعة مدرّسي الحوزة العلميّة في قم. وبالتالي تمكّن من تنشأة وإعداد طلبة متميّزين بارزين. وقد كان أداؤه في التدريس والبحث في حقل العلوم القرآنيّة إلى حدّ أنّه عُرف في الحوزات العلميّة في التاريخ الحديث بمجدّد دروس العلوم القرآنيّة. كما أنّه حصل علي كرسي للتدريس في المعاهد الحوزويّة والجامعات، والتحق بالحوزة العلميّة في مدينة قم المقدّسة.

ثانيًا: آثاره العلميّة:

للعلّامة معرفة آثار قيّمة في حقول الدراسات الإسلاميّة والقرآنيّة، نتوقّف عند أبرز مصنّفاته في مجال التفسير وعلوم القرآن؛ وهي:

1. التمهيد في علوم القرآن (في عشرة أجـزاء): ناقش فيه الكثير من المواضيع والقضايا المتعلّقة بعلوم القرآن؛ كالوحي، ونزول القرآن، ومعرفة أسباب النزول، وتاريخ جمع القرآن ورسم خطّه، والقراءات المتعدّدة، والناسخ والمنسوخ، والمحكم والمتشابه، والإعجاز القرآنيّ ودلائله، والإجابة عن شبهات كثيرة معاصرة حول القرآن وعلومه، وغير ذلك ممّا كتبه بأسلوب مبسّط مطوَّل، حاول فيه تتبّع الآثار والآراء، ونقدها نقدًا علميًا موضوعيًا، مستعينًا بنصوص تاريخيّة ثابتة وروايات متواترة أو محفوفة بقرائن قطعيّة.

ويقول آية الله معرفة في بيان سبب تأليفه لهذه الموسوعة: "والذي شدَّ من عزمي على إنجاز هذا الأثر المتواضع، أنّي لمست فراغًا في مكتبة

الطائفة في عهدنا الحاضر - و قد كانت غنّيّة قبل اليوم- في ما يخصّ جانب البحوث القرآنيّة، مستوفاة؛ ما عدا بحوث قليلة عالجت طرفًا من شؤون القرآن الكريم، وبقيت الجوانب الأُخر - وهي كثيرة- قابعة في زاوية الخمول، لا يجدها الباحث إذا ما حاول التطلّع على رأي الطائفة في ضوء مذهب أهل البيت"[1].

2. تلخيص التمهيد (جزءان): وهو زبدة المطالب التي فصّلها في موسوعة التمهيد في علوم القرآن، وقد لخّصها بأسلوب علميّ تدريسيّ؛ تسهيلًا على طلاب الحوزة لدراسة مطالب علوم القرآن.

3. صيانة القرآن من التحريف (في الدفاع عن حُرمة القرآن وحماية كرامته): تناول فيه دفع الشبهات والأساطير عن القرآن الكريم، وبيان قدسيّته وحفظ الله عزّ وجلّ له من كلّ نقص أو زيادة، ودحض الآراء القائلة بتحريف القرآن أو التي تستلزم القول بالتحريف؛ بالدليل والبرهان.

4. التفسير والمفسّرون في ثوبه القشيب (مجلّدان): بيّن فيه تفاسير المسلمين على اختلاف مذاهبهم واتّجاهاتهم، مستكملًا فيه ما قام به صنّفه الذهبي في مصنّفه "التفسير والمفسّرون"؛ لجهة ضمّ التفاسير الشيعيّة التي أهملها الذهبي في مصنَّفه، وإضافة مصنّفات تفسيريّة جديدة عند أهل السنّة.

5. شبهات وردود حول القرآن: ردّ فيه عمَّا عبَّر عنه بالتساويل الشيطانيّة التي حيكت حول القرآن الكريم؛ سواء تلك التي تحاول التشكيك في كون القرآن الكريم وحيًا مباشريًا تلقّاه نبي الإسلام من ملكوت أعلى، أو تلك المتأثّرة بالبيئة وثقافات جاهليّة كانت ساطية في وقت من

(1) معرفة، محمد هادي: التمهيد في علوم القرآن، ط1، قم، مؤسّسة النشر الإسلاميّ، 1416هـ.ق، ج1، ص21.

الأوقات، أو ما حسبوه متهافتًا من إيهام التناقض في القرآن، أو احتمال وجود اللحن في القرآن، أو احتمال تحريفه.

6. التفسير الأثري الجامع (في أربعة أجزاء وله تكملة): يتّسم هذا التفسير بجمع الأحاديث وتمحيصها وغربلتها وعزل الجواهر عن الأصداف، وفصل الأصداف عن الحجر والمدر والتراب؛ كما أشار إليه المفسّر في مقدّمة تفسيره: "وبهذا النهج الرتيب نستصفي النقي من الرديّ، من خضمّ الآثار ومزدحم الأخبار، ولنجعلها سندًا متبعًا للأخذ والاعتبار"[1].

ثالثًا: منهجه التفسيريّ:

يمكن معرفة المنهج التفسيريّ للعلّامة محمد هادي معرفة من خلال ما سطّره في تفسيره القيّم "التفسير الأثريّ الجامع"؛ حيث أفرد بحوثًا تمهيديّة للتفسير، في بداية المجلّد الأوّل، استغرقت ما يقارب 250 صفحة؛ بوصفها مقدّمة علميّة وتحقيقيّة؛ مثل: فضائل القرآن، ومعنى التفسير والتأويل، والظاهر والباطن، والتفسير بالرأي، ولسان القرآن، وصياغة القرآن، وأسلوب القرآن، وحجّيّة ظواهر القرآن، والسياق في القرآن، والتفسير الأثريّ، وآفّات التفسير، والحروف المقطّعة، ونقد الآثار على منصّة التمحيص، ومباحث أخرى تُطرح لأوّل مرّة في هذا التفسير (كتطبيق الإمام علي عليه السلام؛ مصداقًا لآية المبيت، وليس سببًا لنزولها من جهة زمن نزول الآية، وإنّها نزلت بعد سنتين من الحادث، و...) إلى نهاية سورة البقرة في ستّة مجلّدات.

والمنهج التفسيريّ الذي يتبّعه المؤلّف هو: أنّه بعد إيراد الآية يأتي بشرح معناها، اعتمادًا على الآيات القرآنيّة والشواهد الأخرى، فيزيل عنها الغموض واللبس والإبهام، ثمّ يفسّرها استنادًا إلى الروايات الأخرى المنقولة عن النبي صلى الله عليه وآله والمعصومين عليهم السلام أو الصحابة الذين كانوا يهتمّون بفهم معاني القرآن. ثمّ يستعرض الأحاديث ذات الصلة بأيّ جانب من الفضائل

(1) معرفة، محمد هادي: التفسير الأثريّ الجامع، ط1، قم، موسّسة التمهيد، 2008م، ج1، ص248.

والقراءة والنظم والبديع وتوضيح المعاني والأحكام.

كُتب هذا التفسير باللغة العربيّة، بأسلوب علميّ وتحقيقيّ. ويتبع في منهجه التفسيريّ إيراد الأحاديث وتوضيح الكلمات المأثورة وشرحها، ثمّ تقويم الأحاديث؛ من حيث صحّتها وسقمها.

واعتمد العلّامة معرفة في هذا التفسير بشكل أساس على الأحاديث التي وردت في التفسير الروائيّ الشيعيّ: تفسير نور الثقلين للحويزي، والتفسير الروائيّ السنّيّ: تفسير الدر المنثور للسيوطي. ونهض فريق من تلامذة الشيخ بمهمّة إنجاز قسم من الأعمال التمهيديّة، من قبيل: تحقيق العبارات، واستخراج الأسانيد والنسخ البديلة، وجميع المعلومات التمهيديّة للأحاديث.

وبما أنّ قسمًا من مأثورات التفسير هي عبارة عن كلمات الصحابة والتابعين، فقد أُخضعت للتمحيص والتقويم، واستُعِين بها لتأييد المعنى. وجاء نقل الأحاديث بترتيب منطقيّ ومنظّم، حيث نقل في البداية الأحاديث التي تبيّن سبب النزول وشأن النزول، ثمّ نقل بعدها الأحاديث التي وردت في بيان معاني المفردات وأعقبها بالأحاديث التي تفسّر معاني الآيات بشكل مباشر، ثمّ جاء بعد ذلك بالأحاديث التي وردت بما يتناسب مع الآية أو السورة، ثمّ نقل في الختام الأحاديث الموضوعة.

وله -أيضًا- مصنّفات كثيرة قرآنيّة وغيرها[1].

(1) كالعلوم القرآنيّة؛ تاريخ القرآن؛ تعليم العلوم القرآنيّة؛ التأويل في مختلف المذاهب والآراء، وتناسخ الأرواح، وولاية الفقيه، أبعادها وحدودها، والمجتمع المدنيّ (مجموعة مقالات)، ومالكيّة الأرض، والأحكام الشرعيّة (الرسالة العمليّة)، وتمهيد القواعد (تقريرات دروس آية الله الخوئي)، وحديث لا تُعاد، وحديث من زاد في صلاته، ...

رابعًا: اتّجاهه الاجتماعيّ في التفسير:

يعتبر العلّامة معرفة من أبرز المفسّرين المعاصرين الذين ساهموا في بلورة الاتّجاه الاجتماعيّ في التفسير وعملوا على تطويره، وأكّدوا على ضرورة اعتماده في تفسير القرآن؛ بما يستجيب لمتطلّبات الواقع في هذا العصر، حيث نجده يقول: "يمتاز التفسير في هذا العصر، بتلوّنه باللون الأدبيّ الاجتماعيّ؛ ونعني بذلك أنّ التفسير لم يعد يظهر عليه في هذا العصر ذلك الطابع التقليديّ الجافّ؛ من معالجة مسائل شكليّة، كادت تصرف الناس عن هداية القرآن الكريم، وانشغالهم بمباحث فارغة لا تمسّ روح القرآن وحقيقته؛ و إنَّما ظهر عليه طابع آخر، وتلوّن بلون يكاد جديدًا وطاردًا على التفسير، ذلك هو معالجة النصوص القرآنيّة معالجة تقوم؛ أولًا وقبل كلّ شيء، على إظهار مواضع الدقّة في التعبير القرآنيّ، ثمّ بعد ذلك تصاغ تلك المعاني التي يهدف القرآن إليها في أسلوب شيّق أخّاذ، ثمّ يطَّبق النصّ القرآنيّ علي ما في الكون والحياة؛ من سنن الاجتماع ونظم العمران. هذه النهضة الأدبيّة الاجتماعيّة قامت بجهود كبيرة في تفسير كتاب الله تعالى، قرّبت القرآن إلى أفهام الناس، في مستوى عامّ كان أقرب إلى الواقعيّة من الأمس الدابر"[1].

ويرى آية الله معرفة "أنّ دراسة شؤون القرآن الكريم في مختلف جوانبه المتنوّعة دراسة ممتعة؛ وهي في نفس الوقت ضرورة إسلاميّة ملحّة، يستجيبها كلّ مسلم واعٍ وجد من هذا الكتاب السماويّ الخالد حقيقة ناصعة وبرهانًا من الله صادقًا، فيه تبيان كلّ شيء وهدى ورحمة للعالمين"[2]. فقد وجد العلّامة معرفة في القرآن الكريم سند الإسلام الحيّ، ومعجزته الباقية، والدستور الإسلاميّ الجامع، والكافل لإسعاد البشريّة، عبر تأمين جميع الحاجات النزيهة في كافّة ميادين الحياة.

(1) معرفة، التفسير والمفسّرون، م.س، ج2، ص451.
(2) معرفة، التمهيد في علوم القرآن، ج3، ص5.

ولبيان خصائص الاتّجاه الاجتماعيّ في التفسير عند العلّامة معرفة، لا بدّ من الوقوف عند أركان هذا الاتّجاه التفسيريّ؛ وهما:

1. تنقيح وجه الإسلام من العيوب من خلال الإجابة على الشبهات والتهم.

2. إثبات قدرته على بيان الطريق المناسب في الحياة، من خلال تطبيق آيات القرآن على متطلّبات العصر[1].

وبالطبع ينبغي الالتفات إلى أنّ تحقّق هذه الأهداف في تفسير القرآن ممكن فقط عن طريق التصديق بالعقل والاستفادة من ذلك في التفسير. فالمفسّر الذي يمكنه اليوم أن يبرّيء الإسلام من التّهم ويتطرّق إلى رسالة الآيات وتطبيقها مع قضايا اليوم، هو من يؤمن بقدرة العقل على فهم الآيات ويتجنّب التقليد، ويقدّم كلامًا جديدًا يتطابق مع احتياجات اليوم، ويرى باب الاجتهاد مفتوحًا في كلّ ذلك[2].

1. التقديم الصحيح للدين والدفاع عنه:

يقوم المفسّر الاجتماعيّ بالتقديم الصحيح للدين والدفاع عنه، من خلال الإجابة على الشبهات المُثارة على الدين في مختلف المجالات.

لذا، نجد العلّامة محمد هادي معرفة يكتب كتابًا خاصًا في بيان الشبهات القرآنيّة (شبهات وردود حول القرآن الكريم)، ويخطو هذه الخطوة ويردّ على الشبهات واحدة تلو الأخرى، من خلال ما ذُكِر في القرآن من لسان المشركين آنذاك وهو غير بعيد عمّا يذكره أولئك، ومن ثمّ تفصيل جذور الشبهة الواردة، وإيراد ردود العلماء في هذا المجال إذا وُجدت، ومن ثمّ ضرب الشبهة بعرض الحائط؛ بردّ الرواية المأخوذة منها، أو من سند

(1) انظر: نفيسي، شادي: "تفسير اجتماعي قرآن چالش تعريف و ويژگيها"، مجلة "تفسير و زبان قرآن"، العدد4، ربيع و صيف 1393هـ.ش، ص44-64.

(2) انظر: الذهبي، محمد حسين: التفسير والمفسّرون، ط2، بيروت، دار الكتب الحديثة، 1996م، ج2، ص549؛ معرفة، التفسير والمفسّرون، م.س، ج2، ص482.

صاحبها، وفي هذا المجال يتطرّق إلى ردّ الشبهات في المصادر القرآنيّة، وفي مجال القرآن وثقافة العصر، والاختلاف والتناقض، ومخالفات القرآن... ومن ثمّ يدرس قصص القرآن دراسة أسلوبيّة وغرضيّة وفنّيّة وروائيّة ويردّ عليها ويستنتج ويستخرج الحقيقة منها[1].

أ. تناول التفسير العلميّ:

يرى العلّامة معرفة أنّ "هذا اللّون من التفسير الذي يرمي إلى جعل القرآن مشتملًا على إشارات عابرة إلى كثير من أسرار الطبيعة، التي كشف عنها العلم الحديث، ولا تزال على مسرح الاكتشاف قد استشرى أمره في العصر الأخير، وراج لدى بعض المثقّفين الذين لهم عناية وشغف بالعلوم، إلى جنب عنايتهم بالقرآن الكريم. وكان من أثر هذه النزعة التفسيريّة الخاصّة، الّتي تسلّطت على قلوب أصحابها، أنْ أخرج لنا المشغوفون بها كثيرًا من الكتب والرسائل التي يحاول أصحابها فيها أن يحمّلوا القرآن كثيرًا من علوم الأرض والسماء، وأن يجعلوه دالّا عليها بطريق التصريح أو التلميح؛ اعتقادًا منهم أنّ هذا بيان لناحية من أهمّ نواحي صدقه، وإعجازه، وصلاحيّته للبقاء".[2]

وهذا لا يعني أنّ العلّامة معرفة يرفض هذا اللون من التفسير، بل نجده يؤيّده نوعًا ما، وهو بكلامه السابق يردّ على الآخرين؛ لعدم التزامهم بأصول التفسير ومبانيه، ووقوعهم في محذور تعارض العلم والقرآن في تفاسيرهم[3].

ب. الاهتمام بفلسفة الأحكام:

تعتبر المواضيع الفقهيّة ساحة أخرى من الساحات المليئة بالتحدّيّات

(1) انظر: معرفة، محمد هادي: شبهات وردود حول القرآن الكريم، قم، مؤسّسة التمهيد، 2002م.
(2) معرفة، التفسير والمفسّرون، م.س، ج2، ص443.
(3) انظر: م.ن، ج.ن، ص443-446.

أمام المفسّرين الاجتماعيّين. فالمفسّر الاجتماعيّ يدخل مجال الآيات الفقهيّة للقرآن، لكنْ ليس للبحث في حكمها و أدلّتها، بل لنفي ارتباط هذه الأحكام بالماضي وعدم فعّاليّتها في العصر الحديث، ولنفي تعارضها مع مفاهيم العدالة والمساواة المقبولة، أو ردّ مقولة عجزها عن إيجاد حلّ للمشاكل الحاليّة. وفي هذا السياق يقوم المفسّر الاجتماعيّ، وقبل كلّ شيء بالتطرّق إلى فلسفة الأحكام؛ أي الأحكام التي تشكّل تحدّيًا في العصر الحالي، فيتحدّث عن مواضيع المرأة، والديّة، والحجاب، وتعدّد الزوجات، والطلاق، و... أو يتطرّق إلى مواضيع الربا والجهاد و... مع تركيزه على اقتناص علل التشريعات والأحكام؛ من أجل حثّ الفرد على القيام بالواجبات، عبر طرح المقصود من الحكم وحكمة التشريع.

وقد اعتنى العلّامة معرفة بفلسفة الأحكام، حيث استبنط من حديث الرسول ﷺ لمّا قال عن القرآن: «**... له ظهر وبطن، فظاهره حكم وباطنه علم...**»: «**أنّ ظواهر القرآن هي بيان الأحكام التكليفيّة والتشريعات الظاهرة، أمّا باطنه فملؤه علم وحكمة وحقائق راهنة، نعم يجب أن يعلم كلّ الأمم الإسلاميّة، أنّ المصدر للاستنباط واستخراج الأحكام والسنن للمجتهدين هو نصّ القرآن**»[1].

ج. تنقيح الروايات التفسيريّة:

وقعت الروايات التفسيريّة موردًا للتأمّل فيها منذ زمن طويل، حيث امتاز بعض المفسّرين بالدقّة في معالجة هذا النوع من الروايات؛ وبخاصّة الإسرائيليّات. ومع ذلك، لم تكنْ هذه الروايات في فترة من الفترات، مادّة للإسلام؛ كما هي اليوم، وحتى يومنا هذا لم يكنْ نقدها وتجنّب تقاريرها شاملًا إلى هذا الحدّ. ويعتبر المفسّرون الاجتماعيّون روّاد النقد في هذا المجال، حيث تجنّبوا نقل الروايات التفسيريّة الضعيفة، لينقّحوا بذلك وجه

(1) معرفة، التفسير والمفسّرون، م.س، ج1، ص131.

الدين من كلّ ما يُظهِره عنيفًا وخرافيًا وغير معقول.

وللعلّامة معرفة بصمته الخاصّة والمميّزة في هذا الإطار، فقد وضع حدودًا ومبانيَ وموازين لتنقيح الروايات التفسيريّة[1]؛ بعرض ما تشابه من القرآن على المحكمات المتلقّاة من الكتاب والسنّة القويمة، مع دعمها بحجج العقول؛ وفاقًا لما ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ، أنّه قال: «**إذا أتاكم عنّي حديث فأعرضوه على كتاب الله وحجّة عقولكم، فإنْ وافقها فاقبلوه، وإلاّ فاضربوا به عرض الجدار**»[2]. و«**بهذا النهج الرتيب استصفى النقي من الرديء، من خضمّ الآثار ومزدحم الأخبار، وجعلها سندًا متّبعًا للأخذ والاعتبار**»[3].

فكان للعلّامة معرفة الفضل الأتمّ من بين المفسّرين، في البحث عن كلّ الروايات الواردة في الآيات؛ سواءًا قصصًا، أم سببًا للنزول، أم شأنًا للنزول، أم مصداقًا[4]، حيث يقول: "في القرن الحادي عشر قام مؤلّفان كبيران، هما: السيد هاشم بن سليمان البحراني (1107 أو 1109) وعبد علي بن جمعة الحويزي المتوّفي (1091) في جمع المأثور من أحاديث أهل البيت الواردة في التفسير، من الكتب الآنفة، وما جاء في سائر كتب الحديث؛ أمثال: الكافي، وكتب الصدوق، وكتب الشيخ الطوسي، ونحوها؛ فجاء ما جمعه السيّد البحراني باسم «البرهان»، والشيخ الحويزي باسم «نور الثقلين»، وقد اشتملا على تفسير كثير من الآيات القرآنيّة، بصورة متقّطعة، حسب ترتيب السور، من كلّ سورة آيات، ومن غير وفاء بتفسير كامل للآية، سوى الموضع الذي تعرّض له الحديث المأثور، غير أنّ غالبيّة هذه الروايات ممّا لا تُؤخَذ بعين الاعتبار؛ لِضعف إسنادها، أو

(1) انظر: معرفة، التفسير الأثري الجامع، م.س، ج1، ص247-248.
(2) أبو الفتوح الرازي، حسين بن علي: روض الجنان وروح الجنان في تفسير القرآن، مشهد، منشورات القدس الرضويّ، 1371هـ.ش، ج3، ص392.
(3) معرفة، التفسير الأثري الجامع، م.س، ج1، 248 (بتصرّف يسير).
(4) معرفة، التفسير والمفسّرون، م.س، ج2، ص312.

إرسالها، أو مخالفة مضامينها لأصول العقيدة أو مبانيّ الشريعة، فضلًا عن مخالفة العلم أو العقل الرشيد؛ الأمر الذي يوهن صدور مثلها عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام، إذ يجب تنزيه ساحتهم عن صدور مثل هذه الأخبار الضعاف"[1].

د. تأويل الآيات المتعلّقة بالظواهر الخارقة:

ويُراد بالظواهر الخارقة؛ مثل: المعجزات، والعذاب الإلهيّ، والظواهر الغيبيّة، والملائكة، والجنّ، التي هي في عداد المواضيع التي تبدو لعقل البشر العلميّ - المستأنس بالمادّيّات، ضربًا من الخرافات[2]. وفي هذا السياق حاول بعض المفسّرين الاجتماعيّين؛ خاصّة المتقدّمين منهم، تجنّب قبول ظاهر الآيات التي تركّز على الظواهر الخارقة قدر المستطاع؛ وذلك في إطار محاربة الخرافات، وقد فسّروا هذا النوع من الآيات بطريقة تتطابق مع الحدوث العادي للظواهر[3].

وفي هذا المجال، بعد أن يذكر العلّامة معرفة العديد من هذه الخرافات، يردّ عليها بقوله: "وأخزى اللّه مَنْ نسب مثل هذا الباطل إلى النبي ﷺ، ولا نشكّ أنّ هذا مِن عمل زنادقة أهل الكتاب وغيرهم، الذين عجزوا أن يقاوموا سلطان الإسلام، فسلكوا في محاربته مسلك الدسّ والاختلاق؛ بنسبة أمثال هذه الخرافات إلى المعصوم ﷺ، وإنّا لنعجب لمسلم يقبل أمثال هذه المرويّات التي تزري بالإسلام، وتنفّر منه، ولا سيّما في هذا العصر الذي تقدّمت فيه العلوم، والمعارف، وأصبح ذِكْر مثل هذا يثير السخرية والاستنكار والاستهزاء"[4].

(1) معرفة، التفسير والمفسّرون، م.س، ج1، ص480.
(2) انظر: نفيسي، العقلانيّة في التفاسير، م.س، ص103-104.
(3) انظر: رضائي اصفهاني، محمد علي: منطق تفسير قرآن، ج2، ص349.
(4) معرفة، التفسير والمفسّرون، م.س، ج2، ص292.

2. إثبات استجابة القرآن لمتطلّبات الحياة:

يعتبر المفسّر الاجتماعيّ في نظرته إلى القرآن أنّه كتاب من أجل الحياة، ويجب أن يُقرَأ ويُفهَم ويُعمَل به؛ لإصلاح حياة المسلمين ودنياهم. هذا الكتاب ملهم للبشريّة اليوم، كما كان ملهمًا لها منذ يوم نزوله وإلى يوم القيامة. وعلى هذا الأساس، فإنّ المفسّر الاجتماعيّ يركّز اهتمامه على ركنين؛ هما: الإعجاز، والرسالة المستوحاة من الآيات.

أ. الاهتمام بالإعجاز:

كان موضوع الإعجاز دائمًا محلّ اهتمام في مختلف المحطّات التاريخيّة التفسيريّة؛ مع ذلك عاد الاهتمام به يظهر ثانية في التفسير الاجتماعيّ بنحو خاصّ، مع فارق أنّ المفسر الاجتماعيّ لا يُهمِل الجانب الأدبيّ والبلاغيّ للقرآن، ولا الروايات التفسيريّة، ويحاول توظيف الإعجاز لتمكين المخاطَب المعاصر من فهم القرآن، وعدم حكر الفهم على المتخصّصين.

وقد أكّد العلّامة معرفة على خصوصيّة النصّ القرآنيّ الذي يستجيب بدلالاته وأسلوبه لجميع الناس؛ وهو سرّ إعجازيّ لم يحقّقه أي كلام آخر، حيث يقول: "هكذا نجد القرآن، في استدلالاته، قد جمع بين أسلوبين يختلفان في شرائطهما، هما: أسلوب الخطابة، وأسلوب البرهان، ذاك إقناع للجمهور؛ بما يتسالمون به من مقبولات القضايا ومظنوناتها، وهذا إخضاع للعلماء؛ بما يتصادقون عليه من أوّليّات ويقينيّات. ومن الممتنع في العادة أن يقوم المتكلّم بإجابة ملتمس كلا الفريقين، ليجمع بين المظنون والمتيقّن، في خطاب واحد؛ الأمر الذي حقّقه القرآن بعجيب بيانه وغريب أسلوبه"[1].

(1) معرفة، التفسير والمفسّرون، م.س، ج1، ص111.

ب. إثبات مواكبة القرآن لمتطلّبات العصر:

يحاول المفسّر الاجتماعيّ في تفسيره الوقوف عند ظروف المجتمع واحتياجات الإنسان الراهنة وعرضها على النصّ القرآنيّ لإيجاد الحلول المناسبة لها. وعلى الرغم من أنّ مساعيه في إيصال رسالة الآيات تشمل جميع جوانب إصلاح المجتمع الإيديولوجيّة والعمليّة (العقائد، الأخلاق، والسياسة، والاقتصاد، ...)، لكنّ الإصلاح الاجتماعيّ هو أهمّ ما يشغل المفسّر الاجتماعي، حيث يمكن مشاهدة ما يدلّ عليه في الرسائل الذي يستوحيها من الآيات الاجتماعيّة، وحتّى أبعد من ذلك؛ من الآيات الأخريات؛ ومن بينها آيات القصص القرآنيّة.

لذا، نجد العلّامة معرفة يؤكّد على هذا الأمر بقوله: "لم يترك الأقدمون، لمن تأخّر عنهم كبير جهد في تفسير كتاب اللّه، والكشف عن معانيه ومراميه، فقد تناولوه من أوّل أمرهم بدراسته التفسيريّة التحليليّة دراسة توسّعت واطّردت مع الزمن على تدرّج ملحوظ، وتلوّن بألوان مختلفة؛ حسبما عرفت. ولا شك أنّ كلّ ما يتعلّق بالتفسير من الدراسات المختلفة قد وفّاه هؤلاء المفسّرون القدامى حقّه من البحث والتحقيق، فالنواحي اللغويّة والبلاغيّة والأدبيّة والنحويّة، وحتى الفقهيّة والكلاميّة والكونيّة الفلسفيّة؛ كلّ هذه النواحي وغيرها تناولوها بتوسّع ظاهر ملموس، لم يتركوا لمن جاء بعدهم إلى ما قبل عصرنا بقليل من عمل جديد أو أثر مبتكر يقومون به في تفاسيرهم التي دوّنوها، سوى أعمال ضئيلة لا تعدو أنْ تكون جمعًا لأقوال المتقدّمين، أو شرحًا لغامض آرائهم، أو نقدًا أو تفنيدًا لما يعتوره الضعف منها، أو ترجيحًا لرأي علي رأي؛ ممّا جعل التفسير يقف وقفه طويلة مليئة بالركود، خالية من التجديد والابتكار"[1]. ثمّ يضيف: "ولقد ظلّ الأمر على هذا، وبقي التفسير واقفًا عند هذه المرحلة -مرحلة الركود والجمود- لا يتعدّاها، ولا يحاول التخلّص منها. حتى جاء عصر النهضة

(1) معرفة، التفسير والمفسّرون، م.س، ج2، ص410.

العلميّة الحديثة، فاتّجهت أنظار العلماء الذين لهم عناية بدراسة التفسير إلى أنْ يتحرّروا من قيد هذا الركود، ويتخلّصوا من نطاق هذا الجمود، فنظروا في كتاب اللّه نظرة فاحصة من جديد، وإنْ كان لها اعتماد كبير على ما دوّنه الأوائل في التفسير، أثّرت في الاتّجاه التفسيريّ للقرآن تأثيرًا ملموسًا، وغيّرت من اتّجاهاته القديمة، وألبسته ثوبًا جديدًا لا ينكر؛ إذ عملت على التخلّص من كلّ الاستطرادات التي حُشرت في التفسير حشرًا ومُزجت به على غير ضرورة لازمه، وثابرت على تنقية التفسير من القصص الإسرائيليّة التي كادت تذهب بجمال القرآن وجلاله، و تمحيص ما جاء فيه من الأحاديث الضعيفة أو الموضوعة على رسول اللّه ﷺ أو على أصحابه والأئمّة من بعده عليهم السلام، وإلباس التفسير ثوبًا أدبيًّا اجتماعيًا، في صياغة جديدة أظهرت روعة القرآن وجمال بهائه، كما كشفت عن كثير من مراميه الدقيقة وأهدافه السامية، في معرفة الإنسان والحياة والسياسة والاجتماع، وهكذا حاولت التوفيق بجدّ بالغ وجهد بيّن، بين ظواهر القرآن وما جدّ من نظريّات علميّة صحيحة، على تفاوت بين الموقفين في الغلوّ والاعتدال. كلّ ذلك من أجل أنْ يعرف المسلمون ومن ورائهم الناس جميعًا أنّ القرآن هو الكتاب الخالد، الذي يتمشّى مع الزمان في جميع أطواره ومراحله. ولقد أجادوا وأفادوا في هذا المجال، ولكنّهم توسّعوا في ذلك، وربّما بلغ ببعضهم حدّ الإفراط والغلوّ؛ بما أخرجهم عن حدّ الاعتدال. كان الجري مع الزمن في التفسير استدعى تنوّعه مع تنوّع متطلّبات العصر ومتقلّباته"[1].

(1) معرفة، التفسير والمفسّرون، م.س، ج2، ص442.